مجلة دراسات موصلية

مجلة دورية علمية محكمة ، تعنى ببحوث الموصل الاكاديمية في العلوم الانسانية

ISSN. 1815-8854

تاريخ استلام البحث:٢٠١٩/٩/٢٣ تاريخ قبول نشر البحث: ٢٠١٩/١١/٢٥

كتاب الموصل في مستهل القرن العشرين

(دراسة نقدية ابستمولوجية)

The Book of Mosul at the Beginning of the Twentieth Century (A Criticism Study)

أ.د. ذنون يونس الطائي

مركز دراسات الموصل، جامعة الموصل

الاختصاص الدقيق: استاذ تاريخ العراق الحديث والمعاصر

Prof. Dr. Thanoon. Y. Altaee

Mosul studies centre, Mosul University

Specialization: History of Modern Iraq

ISSN. 1815-8854

ملخص البحث:

يتناول البحث بالنقد والتحليل بعض المغالطات وتزييف الحقائق والفهم السيء لطبيعة المجتمع الموصلي من قبل المستشرقة م. أي. هيوم. غريفيث، وما سطّرته في كتابها الموسوم (الموصل في مستهل القرن العشرين) جرياً على عادة أترابها المستشرقين الإنكليز في رسم صور مشوهة عن المجتمع العراقي ومنه الموصلي خلال زياراتهم للمدينة ومكوثهم فيها لإغراض تبشيرية وغيرها.

الكلمات المفتاحية: غريفيث، مستشرقين، القرن العشرين، ديانة، المجتمع الموصلي.

Abstract:

The research dealt with the criticism and analysis of the some fallacies and falsification of facts and miscon–ception of the community of Mosuli by the orientalist .M.A.Hume. Graiffth and written in her book Mosul in the beginning of twentieth century in the some style of the English orientalists in telling ateribble information of the Iraqi society and Mosulin particular during their visit to the city or their stay for mission any purpose and others.

Key words: **twentieth century**, **Graiffth**, **orientalists**, **Mosulin particular**, **criticism**.

المقدمة:

عنى العديد من المستشرقين الأوربيين بدراسة تاريخ الموصل في النواحي الاجتماعية والحضارية والدينية والقومية، في إطار تناولهم صفحات من تاريخ العراق الحديث والمعاصر، خلال تأدية مهامهم الدبلوماسية في سفارات بلادهم أو مرورهم بمدينة الموصل، وأثناء العمل في الإرساليات التبشيرية وغيرها من الأعمال التي أتاحت لهم الاحتكاك بالسكان والاطلاع على طبيعة الأوضاع التي سادت في البلاد بمظاهرها المختلفة.

وهؤلاء المستشرقون صنفان الأول منصف في طروحاته وتقويمه ونقل الحقائق كما هي دون هوى للنفس، والثاني مضل ومضلل، صبّوا جام حقدهم وتعصبهم على التاريخ العربي الإسلامي، وسعوا إلى تشويه الحقائق والحط من القيم العربية الإسلامية، وإظهار المجتمع الموصلي في غاية التخلف والانحطاط.

وفي بحثنا هذا تم تناول بعض ما كتبته السيدة م. أي. غريفيث في كتابها (الموصل في مستهل القرن العشرين) ترجمهُ عن الانكليزية صباح صديق الدملوجي (لا.م، د.ت) ويقع في ١٦٢ صفحة، والمؤلفة زوجة طبيب بريطاني رافقته في عمله بمستشفى أقامته الجمعية التبشيرية الكنسية الانكليزية في مكانين خلال المدة ١٩٠٠–١٩٠٨، وكانت السنوات

ISSN. 1815-8854

الأربع الأولى في بلاد فارس والثانية في مدينة الموصل، سطرت فيها الكثير من الانطباعات عن الحياة الاجتماعية والمفاهيم الدينية والأوضاع الاقتصادية، والحالة الصحية، وعن العادات والتقاليد السائدة، وقد غالت في تسجيل إنطباعاتها السيئة عن المجتمع الموصلي من خلال التفسيرات الخاطئة وعدم الفهم، مما إنعكس سلباً على تقويمها ورسم صورة قاتمة مغلفة بالكثير من المغالطات ولاتخلو من حقد بيّن على المسلمين ومعتقداتهم وقيمهم. وهذا ما حدا بنا للنقد والتحليل وتصحيح الطروحات والمغالطات التي أتت بها. على الرغم من ذكرها لبعض الحقائق والسجايا المتعلقة بالكرم والوفادة لأهل الموصل.

وقد آثرنا في بحثنا هذا عدم التبسط كثيراً في الشرح لمقتضيات محدودية صفحات البحث العلمي. وكون النصوص مجتزئة من صفحات متعددة فقد جعلناها باللون الغامق يتبعها التعليق والإحالة الى المصادر.

١ – مورفولوجيا* مدينة الموصل:

تناولت الكاتبة العديد من الموضوعات المتعلقة بالتركيب السكاني والمكاني للموصل ومورفولوجيتها، وتذكر أن: **"هناك العديد من الروايات بالنسبة لأصل الموصل المحتمل، غير ان تاريخها المبكر الصحيح يتلبسه الغموض"**[١].

في واقع الأمر لا يوجد أي لبس في تاريخ نشأة الموصل، إذ نشأت حصناً فوق تل قليعات، قبالة مدينة نينوى، وبعد سقوط تلك المدينة سنة ٦١٢ق.م من قبل الميديين، لجأ إليها من سلم منهم.

وفي القرن الرابع ق.م ذكرها زينفون باسم مسبلا (Muspile) وكان يسكن حول الحصن بعض الآراميين ولهم بيعة قريبة منه وأطلقوا عليها (حصن عبورايا) أي الحصن الغربي، تمييزاً عن نينوى الحصن الشرقي. وكانوا يطلقون على نينوى والموصل اسم (الحصنين) وسميت أيضاً (خولان) ثم الموصل وقد غلب عليها الاسم الأخير[٢]، إلى جانب تسمية أم الربيعين والحدباء والبيضاء[٣].

وعن أسوار الموصل تقول: **"إن الأسوار التي تحيط بالموصل قديمة جداً، كانت هذه الأسوار قد بُنيت في الأصل قبل نحو ألفي سنة من رجل يدعى –مروان– وهو احد ملوك قبيلة تدعى الأموية"**[٤].

بني سور الموصل في زمن الوالي الأموي (مروان بن محمد) الذي سبق ذكره، وهو ليس ملك ولا يتبع قبيلة تدعى الأموي، بل للدولة الأموية (٤٠–١٣٢هـ) وشهدت مدة حكمه إزدهاراً في العمران، ونظم الطرق وأحاط مدينة الموصل بسور له أبواب عدّة، جدد ووسع في فترات متعددة، وإهتم به عمادالدين زنكي(٥٢١–٥٤١هـ)[٥] وطوَّره وحفر حوله خندقاً وبلغ طوله حوالي عشر كيلو مترات. وإهتم به فيما بعد الجليليون[٦] (١٧٢٦–١٨٣٤م) وجعلوا له ١٢ باباً[٧].

وأوردت أن **"عدد سكان الموصل يتراوح بين ستين وثمانين الف نسمة، أما إذا أخذنا الولاية بكاملها فإنه يبلغ نحو مليون ونصف المليون"**[٨].

ISSN. 1815-8854

من المعلوم عدم وجود إحصائية دقيقة لعدد سكان الموصل وانما أرقام تقديرية فقد ذكرت مثلاً سارة شيلدز[٩] أن عدد سكان الموصل سنة ١٩٠٧-١٩٠٨ بلغ (٣٦,٦٥٥) نسمة وقد أخطأت شيلدز عند الجمع، وإن تفصيلات السكان من الذكور حسب الديانة لسنة ١٩١١-١٩١٢ والتي سيبلغ مجموعها (٥٠٠١١) نسمة كما يأتي:

الطائفة	العدد	الملاحظات
المسلمون	٢٩١٥٦	
الارثوذكس	٤٢٠٠	
الارمن الرسوليين	٩٣٠٠	
البروتستانت	١٤٢	
اليهود	١٣٠٣	
الكلدان	٢١٨٥	
السريان القدامى	١٨٧٧	
السريان الاغريق والكاثوليك	١٨٤٨	
المجموع	٥٠٠١١	

وذكرت: "**أن الموصل ترتبط مع نينوى بجسر عتيق من القوارب التي ربما كانت موجودة منذ زمن النبي يونس**"[١٠].

هنا تتحدث الكاتبة عن نينوى والموصل وكأنهما مدينتين منفصلتين بينهما حاجز مائي وهو نهر دجلة، وإن الرابط بينهما هو جسر من القوارب، وترجح إمتداد وجوده إلى زمن النبي يونس (عليه السلام)، وفي الحقيقة إن أقدم ذكر لجسر القوارب يرجع إلى مدة حكم مروان بن محمد الذي تولى حكم الموصل سنة ٧٢٠م زمن الدولة الأموية، وشهدت الموصل خلالها اتساعاً عمرانياً ونصب لها جسراً يربط بين ضفتي نهر دجلة، وأُتخذت فيه منارة فزادت هجرة القبائل العربية إليها، فغدت قاعدة بلاد الجزيرة[١١].

وعن سكان الموصل وصيامهم تقول: "**إن سكان الموصل من المسلمين والمسيحيين سواء يتذكرون سنة بعد أخرى ثلاثة أيام من الصيام والتوبة، كما هي مذكورة في سفر يونان. كما أن بعضهم لازال يصوم ثلاثة أيام بصورة متزمتة بينما يصوم الآخرون من غياب الشمس إلى غياب الشمس، ويأكلون مرة واحدة خلال يوم كامل .. ومن المناسب الكلام عن النساء هنا لأنهن أكثر من يتقيد بهذا الصيام.. إذ غالباً ما يصمن ثلاثة أيام متوالية ولا يسمحن لقطرة ماء واحدة أن تلامس شفاههن ويتمنين من الله عز وجل أن يستجيب لدعائهن**"[١٢].

لم يأت ذكر الصيام لثلاثة أيام في سفر يشوع بن نون بالكتاب المقدس بل جاء بالنص "فقال يشوع لقادة الشعب: تجولوا وسط المحلة وقولوا للشعب: أعدوا لكم زاداً لأنكم بعد ثلاثة أيام تعبرون الأردن [نهر الأردن] لتدخلوا

ISSN. 1815-8854

الأرض التي يعطيكم الرب إلهكم وتمتلكوها"[١٣]. فالقول كان لإعداد الطعام لا للصيام من أجل عبور نهر الأردن والوصول إلى أرض كنعان[١٤].

ويلاحظ لدى الكاتبة خلط بين مفهوم الصوم عند المسلمين والمسيحيين، فصيام المسلمين يتركز في شهر رمضان من كل سنة مع بعض النوافل، ووقته قبل الفجر حتى آذان المغرب، ولا يوجد منّ يصوم من غياب الشمس إلى غيابها مرة أخرى أي ٢٤ ساعة في اليوم، في كل الأديان السماوية، ومن المعروف بأن صيام المسيحيين في مناسباتهم الدينية، هو الامتناع عن أكل اللحوم والمواد الدهنية غير النباتية مدة خمسين يوماً[١٥]. ومع ذلك هناك من النسوة المسيحيين من يصمن ثلاثة أيام متتالية لاسيما إن كان الأمر يتعلق بالنذر.

أما عن المجاعات التي إجتاحت مدينة الموصل فقد ذكرت: **"عانت الموصل بين الفينة والأخرى الكثير ومن أسباب مختلفة منها، قسوة بعض حكامها، والمجاعات التي سببتها غزوات الجراد الذي خرب المحاصيل، كذلك الطاعون الذي حلّ بها سنة ١٨٣١م، وترك المدينة مقفرة تقريباً، ويقال أن مائة ألف قضوا نحبهم من تلك اللعنة المهولة"**[١٦].

وبالفعل فقد تعرضت الموصل إلى العديد من الويلات التي سببها إنجماد نهر دجلة وغزو الجراد النجدي وانتشار الأوبئة والأمراض[١٧] وحصدت أرواح المئات، ولكن لايعقل أن يصل عدد الضحايا إلى مئة ألف نسمة بسبب بسيط أنها تذكر في مكان آخر أن عدد سكان مدينة الموصل يتراوح بين ستين وثمانين ألف نسمة، فكيف يتوفى منهم مئة ألف!

٢- اليهود في الموصل:

وقد ذكرت المستشرقة في كتابها شيئاً عن حياة اليهود في الموصل بقولها: **"هناك نحو ألفين من اليهود في الموصل ويرجعون بأصلهم الى زمن الأسر البابلي، وقد تمسك هؤلاء اليهود بمعتقداتهم رغم الكثير من الاضطهاد الذي أصابهم. كان محمد يأمل في البداية أن يهتدي اليهود بسهولة الى الاسلام، لذا أمر أتباعه أن يولوا وجوههم شطر مدينة القدس عند الصلاة، غير أنه رأى آماله من هذه الناحية تتبدد بعد بضعة شهور، لذا قام بتغيير تعليماته وطلب من كافة المسلمين أن يتجهوا نحو مكة عند صلاتهم"**[١٨].

وإن أعداد اليهود في الموصل أقل من ذلك –كما أسلفنا – إعتماداً على ما ذكره الرحالة الأجانب ولعدم وجود إحصائية رسمية دقيقة للسكان. أما بخصوص إتجاه القبلة فإن رسولنا الكريم (**وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى**[٣] **إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى**[٤])[١٩] ففي بداية النبوة أمر الله تعالى النبي الكريم بالصلاة في أي إتجاه مصداقاً لقوله (**وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**[١١٥])[٢٠] ولما كان الاختلاف في توجه المسلمين نحو القبلة، فقد أمر الله نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) بتولية وجوه المسلمين في الصلاة نحو الكعبة (المسجد الحرام) فقال تعالى (**قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا**

ISSN. 1815-8854

وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ)[٢١] وذلك من أجل وحدة المسلمين في صلاتهم بإتجاه القبلة. أي أن تغيير اتجاهها هو أمر إلهي وليس أمراً (تكتيكياً) إتبعه الرسول الكريم لكسب ود اليهود كما غمزت بذلك الكاتبة.

وأشارت ايضاً إلى أن "**اليهود في الموصل موضع إحتقار وإزدراء كل من المسيحيين والمسلمين على حد سواء، ومن المحزن أن نرى الطريقة المنّفرة التي يعامل بها اليهود في عيادة المستوصف، إن الطريقة المملوءة بالاحتقار التي تنطق بها كلمة يهودي كافية لتجعل قلب المرء ينفطر أسى لحالهم، إذا ما كان هناك أي عمل مخزٍ يجب إنجازه فاليهودي هو الوحيد المستعد لعمله. واليهود هم صبّاغوا الأحذية في الموصل**" وتنتقل بعدها لتقول: "**من المبهج منظر كل هذه (القوميات)! المختلفة. مسلمون ومسيحيون ويهود وأكراد وعرب ...!، كلهم جالسون سوية في غرفة الانتظار في المستوصف ينتظرون رؤية الطبيب**"[٢٢].

من الثابت بأن اليهود اندمجوا في المجتمع الموصلي، حتى إنهم كانوا يرتدون ألبسة المسلمين، وعاملهم معظم المسلمون بتسامح، ما عدا بعض الاختلافات التي كانت تحدث هنا وهناك وهي مسألة طبيعية[٢٣]. ولو كان هناك حالة إزدراء وإحتقار في المجتمع الموصلي لطائفة اليهود وغيرهم، فكيف تؤكد الكاتبة وتشيد بالمنظر المبهج الذي جمع كل القوميات والطوائف في المستوصف بانتظار الطبيب!.

أما عن المهن التي امتهنها اليهود فهي لاتقتصر على صباغة الأحذية، بل عملوا في الوظائف الحكومية والتجارة والعطارة والصياغة والبقالة والصيرفة والخياطة والزراعة وتربية المواشي وفي العقارات وغيرها، كما هو الحال بالنسبة للمسلمين وغيرهم في المجتمع الموصلي[٢٤].

وقد أطلقت الكاتبة تعبير (عبدة الشيطان) على الطائفة الأيزيدية، وهم بالحقيقة لهم طقوسهم الدينية الخاصة بهم اعتماداً على كتبهم الدينية وبخاصة كتابي (مصحف رش والجلوة)، وهم يقدسون الشيخ عَدي بن مسافر الأموي (المختلف في سنة ولادته ووفاته) في أواخر ق ١١ ومطلع ق ١٢، وهو عبد مسلم متعبّد وصل سنجار في أواخر القرن الحادي عشر، لنشر الإسلام، وقد شاب دعوته التحريف إذ يعتقدون بوجود إلهين إله الخير (الله) وإله الشر (الشيطان) ولذلك يتجنبون ذكر الشيطان وحرف الشين في الكلام. وهو على شكل طائر كالطاووس مصنوع من النحاس، وهم لايرغبون بإطلاع الغرباء على طقوسهم[٢٥].

٣- مكانة الابن في الأسرة الموصلية:

تحدثت الكاتبة عن عادات اهل الموصل عند ولادة الابن بقولها:"**وإذا ما ذهبنا إلى قسم الحريم لنستمتع بمنظر الملك الصغير وتقدم احترامنا، فعلينا أن لا نكثر من مدحه. وإذا ما فعلنا ذلك فيجب إضافة ما شاء الله، لأقوالنا وذلك كفيل بإبطال أي تأثير للشر**"[٢٦].

إن المجتمع الموصلي في أغلبه مسلم ويتبع القرآن والسنة والتعاليم الدينية كمنهج للحياة، وقد أوصانا بالقول (ما شاء الله لاقوة إلا بالله) عند النظر إلى أي شيء جميل خشية الحسد. وللطفل الذكر فرحة خاصة عند ولادته، ولدى أهل

ISSN. 1815-8854

الموصل تقاليد معينة مثبتة عند ولادته منها تهيئة الألبسة الداخلية والاقماط واليازمات والجودلية الصغيرة ومخدة وصابون معطر ومشلَح، وتتلقى الام وحماتها التهنئة من الجيران والاقارب عند ولادته بالقول في اللهجة الموصلية (قغت عينكِ عالبركي ما جاكم، فتجيب: الله يباركلكم يوم التفغحين بولادك. ثم تنحني على المولود وتقبله وتستخرج من جيبها الهدية، إما محبس ذهب، أو قطعة ماشاء الله ذهبية أو نقود ورقية تضعها في قماط الطفل، وتقول الحمي (بمعودة ليش اتكلفتِ إنغيد منكِ؟).

أما الجيران فتقول الواحدة للأخرى: فلاني جابت أبن، فترد الأخرى وي أش بساع؟ بعد البيحه أزوجت، فترد الأولى، يما النسوان هل الوقت، اجيبونو معاهم بالبقجة امقمط أتفتحين وتغمضين قالوا فلاني جابت، وأما الجيران المحبين فتقول الأولى للأخرى، ما استمعتِ؟ فلاني جابت أبن، فترد الثانية وي خطيي تستيهل خوش بنت الله يحفظو لهم.[٢٧]

وتحدثت الكاتبة عن المهد الذي يوضع فيه الطفل للنوم بقولها: **"عندما ينمو الطفل ويصبح هذا المهد صغيراً بالنسبة له، سيجري نقله إلى مهد آخر أكبر وأكثر راحة، حيث لا حاجة لأن يشد إليه لان جوانبه مرتفعة بصورة تمنع سقوطه منه"**.[٢٨]

هناك خلط بين المهد المصنوع من الخشب طوله تقريباً متر وعرضه بحدود ٦٠ سم ويستند على خشب مقوس تسمح له بالمرجحة أثناء نوم الطفل بعد ربطه بواسطة (مشد) تجنباً لسقوطه أثناء المرجحة ويضم: "المطغح والسنجي والسيبك والابنود والاحليل".

وفي عمر السنتين يضيق المهد على الطفل، فيوضع اثناء نومه في (الديدية) وهي المرجوحة المصنوعة من الخشب وترتكز على أربعة قوائم ثابتة تسمح لوضع الطفل على لوح مستطيل خشبي له مساند يسمح له بالتمرجح جيئة وذهاباً بعد ربطه بالمشّد.[٢٩]

وعن تربية الأطفال تقول ايضاً: **"سمعت قبل بضعة أشهر عن طفل أسود صغير في الموصل كانت أمه زنجية مسلمة توَد إيجاد من يأخذه في بيته، عرضنا على الأم أخذ طفلها لتربيته لكنها رفضت عرضنا بصورة قطعية لأننا مسيحيون، وكانت تخشى أن يشب الطفل على ديننا قبل أن يتعلم كراهية المسيحيين، لأنه كان يبلغ من العمر سنة واحدة فقط"**[٣٠].

تصرُ هذه الكاتبة على تثبيت أسفين من الكراهية بين المسلمين والمسيحيين، وإن الطفل المسلم يتعلم كراهية المسيحيين منذ الصغر! ولو كان الأمر كذلك لما عاش الطرفان جنباً إلى جنب منذ مئات السنين، بشهادة العديد من الرحالة الأجانب المسيحيين الذين زاروا الموصل في فترات متعددة. فهذا نيبور مثلاً رسم لنا صورة عن طبيعة العلاقة التي سادت بين المسلمين والطوائف المسيحية عند زيارته للموصل سنة ١٧٦٦ بقوله: "إن حالة النصارى في الموصل أحسن بكثير من حالة النصارى في بقية بلدان الإمبراطورية العثمانية، فإنهم يعيشون سعداء وعلى وئام تام مع المسلمين ويلبسون كما يلبس المسلمون"[٣١].

ISSN. 1815-8854

أما عن التعليم وإرسال الأطفال للتعلم فتقول: "**ربما يكون كل طفل من أطفال المدرسة يردد جزءاً مختلفاً من القرآن في نفس الوقت وبطريقة غنائية**"(٣٢).

جرت العادة لدى أهالي الموصل بإرسال أولادهم الصغار عند بلوغهم السن السادسة إلى (الكتّاب) أو الملا وأحياناً (الملاية) قبيل إنشاء المدارس الرسمية، لتعلم القرآن الكريم وطائفة من الأحاديث النبوية، ومن المحبب عند قراءة القرآن الكريم، تجويدهُ وترتيله وفق قواعد خاصة به مصداقاً لقول الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم): (ليس منا من قرأ القرآن ولم يتغن به)، وفي حلقات الدرس في المساجد والجوامع ينقسم أحياناً الأطفال إلى مجاميع وتتخذ كل منها زاوية من أركان المسجد وتبدأ بالقراءة ترتيلاً بما تيسر من سور القرآن الكريم كل على حدا(٣٣).

وتورد مثلاً غريباً مؤداه: "**النساء مخلوقات غير ذات قيمة وهم يدنسون سمعة الرجال**". كيف وهي الأم والأخت والزوجة، وقد أعطاها الإسلام قيمة عليا في الاحترام والتبجيل وفي القرآن الكريم، خصص الله تعالى سورة كاملة سميت (النساء) لشرح أحكام وصيغ التعامل مع النساء وإعطائهن حقوقهن الشرعية. ولتعزيز مكانتها في الأسرة والمجتمع قال تعالى: (ولا تنهرهما ولاتقل لهما أفٍ)(٣٤) والمقصود هنا الرجل والمرأة (الوالدين) وسئل رسولنا الكريم (صلى الله عليه وسلم) مَن أحقُ بصحبتي قال: أُمك، ثم منّ، أُمك، ثم مَن، أُمك ثم منّ، أبوك) فالتأكيد في كلام الرسول على مكانة المرأة والأم قبل الرجل أو الأب، فالمرأة هي التي تحمل وتلد وتسهر على تربية الأطفال حتى الكبر، فكرمها الله تعالى وكذلك المجتمع الإسلامي.

وتشن الكاتبة هجوماً على الأطفال وسبل تربيتهم وترسم صورة قاتمة عن سلوكياتهم بقولها: "**إن الأطفال يفقدون قدراً كبيراً من جمالهم عندما يبلغون الخامسة أو السادسة، ربما يكون بسبب ذلك تلوث نفسياتهم عند ذلك العمر بمعرفة الشر وتنعكس تلك المعرفة على وجوههم.. كيف تكون الحياة جميلة عندما تكون الروح ضمنها قد تحجرت؟ وبقدر ما يمكن للخطيئة والندم أن يجعلانها، فالبنين والبنات يترعرعون في بيئة سرعان ما تُلوث أرواحهم، فبراءة الطفولة، العزيزة جداً على قلوب الآباء في إنكلترا غير معروفة بين حريم العالم الإسلامي**"(٣٥).

إن الطفل في المجتمع الموصلي في سن الخامسة والسادسة لما يزلّ بين أحضان والديه، وقلما يُسمح له بالخروج خارج البيت. وهو يحمل كل معاني الطفولة والبراءة، فكيف تلوث نفسياتهم وأية خطيئة تتحدث عنها، وقد أكد الدين الإسلامي على أهمية الإعتناء بتربية الطفل منذ الصغر فيقول الرسول الكريم: (علموهم في السبع وإضربوهم في العشر)(٣٦)، فيشب الطفل على محبة القيم الإسلامية. وتبدو ظاهرة في سلوكه وتعامله كونه قد تربى على (العيب والحرام) ويرى أبويه قدوة في الصدق والأخلاق الفاضلة(٣٧).

ويحرص الوالدان على تعليم أولادهم فيرسل الطفل في سن السادسة إلى (الملا)– كما أسلفنا – لتعليم القراءة والكتابة ومبادئ وقيم الدين الإسلامي الحنيف. فإذا شب يرسل إما إلى المدرسة بعد ظهور التعليم الرسمي، أو يذهب مع

ISSN. 1815-8854

والده ليتعلم مهنته ويخلفه في عمله ويعتمد على نفسه في كسب رزقه ويكون حسن الأخلاق وطيب المعاشرة متمسكاً بدينه، وينظر الناس إليه بإحترام ويرغب الكثير منهم بتزويجه إبنته[٣٨]. هكذا يبدأ الأطفال في الموصل حتى سن الزواج، على عكس أطفال أوربا، الكثير منهم يولدون ولايعرفون آبائهم، ويتعرضون إلى التشرد في الطرقات وهم منّ تتلوث نفوسهم وأخلاقهم فيشبوا على السرقة والإجرام وتناول الخمور ويلهون بالفسق والفجور وغيرها، مما لم نجد مثيله في المجتمع الموصلي.

وتقول أيضاً: **"لا زالت ذكرى يونس مستدامة في الموصل من خلال تسمية الآباء لأبنائهم باسمه وهذا الاسم واحد من الأسماء المفضلة بين المسيحيين والمسلمين واليهود"**[٣٩].

هي تقصد النبي يونس (عليه السلام) ومن المعروف في المجتمع الموصلي، إن المسلمين يسمون أولادهم باسمه (يونس) وكنيته (ذوالنون) ولايُعرف عن المسيحيين واليهود كذلك. إنما يطلق المسيحيون تسمية يونان على أولادهم.

٤- مكانة البنت في الأسرة الموصلية:

كما تحدثت الكاتبة بكثير من الإجحاف عن نظرة العائلة إزاء ولادة البنت فأوردت مثلاً غريباً فحواه: **"على أهل الدار البكاء أربعين يوماً عند ميلاد بنت"**[٤٠] عُرف عن أهل الموصل الإيمان والتقوى ويؤمنون بما جاء في كتاب الله "لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور)[٤١]، وعلى الرغم من تفضيل الولد على البنت في الإنجاب، كون الولد معين لوالده في عمله، بيد أن هكذا مثّل لم يروج في الأمثال الموصلية- على حد علمنا- ذلك أن كره ولادة البنت عادة جاهلية مقّتها الإسلام. وعلى العكس تماماً هناك العديد من الأمثال الموصلية التي تحبب ولادة البنت منها (البنت تأكل من كَصتا)[٤٢]. وتهدهد أمها لها وتقول:

دلالك من دلالين دلالك ما عليه دين
دلال الناس ويحد دلالك الف وميتين

وتقول كذلك:

صباحك صباحين صباح ال ماعلينو دين
صباح القس بالبيعة والمطغان بحوش الديغ[٤٣]

وتقول كذلك: **"الوجه المنير والمفعم بالحيوية الذي تراه بصورة رئيسية بين الفتيات غير المتزوجات، فالزواج في الشرق له بصورة عامة تأثير يستلب البهجة من الوجوه أو حتى من الحياة"**[٤٤].

إن الفتاة في الشرق ومجتمعاتنا الإسلامية مرتبطة وجدانياً بمبدأ الأمومة، وغالباً ما تتطلع وتكون في غاية السعادة نحو بناء أُسرة سعيدة، وتكون مقبلة على الحياة ومتفاعلة مع عائلتها وجيرانها.

والبنتُ تكون محل اعتزاز أهلها قبل الزواج وتتغنى الأم بجمال بنتها وتنشد بقولها:

أسومة من حلاها طلقت نسوان

ISSN. 1815-8854

والعبدة وصيفة والعبد مرجان

لو يدري الباشا بحسنها دز لبوها حصان[٤٥]

وتصف الكاتبة وصفاً مشوهاً وتنسج مغالطة كبرى لطريقة تزويج البنات بقولها: **"يتفاوض الأبوان مثلاً مع رجل معروف بعيشه الفاسد لتزويجه إبنتهم. ثم يقولون عندما تقاسي بعد ذلك إنه النصيب من الله! أذلك من الله حقاً، لو قالوا إنه من الشيطان لكان ذلك القول الأصح.. أو عندما يتهشم أحسن طقوم الشاي من الخزف الصيني لديك.. وإذا ما كان المناخ بارداً أو حاراً أو جافاً فان تعليقهم لن يختلف انه النصيب"**[٤٦].

هل يعقل هذا، رجلٌ يفاوض آخر فاسد ليزوجه إبنته فلذة كبده! فمن المعروف بأن الرجل لايوافق على تزويج إبنته إلا لمن عُرف بحسن الخلق والدين، ومن أُسرة معروفة في البلد ولها صلات مع أهله، ويفضل أهالي الموصل تزويج بناتهم لابن العم أو العمة أو الخال أو الخالة تبعاً للمثل الشائع (الطين من هل الطين والكعكي من هل العجين)، وقد تكون بديلة بين أبناء العم أو بين رجلين فيتزوج كل منهما أُخت الثاني ويسمى هذا (كَصة بكَصة) أو (البدائل) وجرت العادة أن الشاب بعد أن يعتمد على نفسه فان أمه ترغبه بالزواج وتصف له بعض البنات وما هن عليه من الحياء والخفة بالعمل وحسن الأدب والطاعة، وإنها بنت ما تطلع إلا مع أُمها فهي خاتون بنت خاتون وهكذا تتم الخطوات الأخرى، فإذن حسن السلوك والسمعة كان ديدن الطرفان في الزواج، بعكس إدعاء الكاتبة وتسطير المزيد من الافتراءات[٤٧].

٥- شؤون المرأة:

وهاجمت الكاتبة الاوضاع التي تعيش فيها المرأة في الموصل بكثير من المغالطات والافتراءات وأعابت الكاتبة على المرأة المسلمة لبس النقاب بقولها: **"قام محمد بحبس المرأة للأبد في قبر بواسطة النقاب"**[٤٨].

مما يؤسف له أن بعض المستشرقين ونتيجة عمى قلوبهم، لايفرقوا بين كلام الله ورسوله، فإن الشريعة الإسلامية قد حددت واجبات الفرد المسلم ذكراً كان أم أنثى، فالرجل يكِدُ من أجل كسب رزقه، والمرأة مكانها البيت لتدير شؤونه فضلاً عن تربية الأطفال، وأوصى الله تعالى المرأة المسلمة بأن تبتعد عن سلوك الجاهلية في التفكير وحتى الملبس، فإذا خرجت من بيتها، فعليها إرتداء الملابس المحتشمة ومنها الحجاب وإن كانت غانية. فأولى أن تنتقب خشية الفتنة، يقول الباري عز وجل: (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن، ولايبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهم أو آبائهن أو أبناء بعولتهن..)[٤٩]. فلا إنفلات في المجتمع الموصلي كما هو الحال في أوربا فالعري تحصيل حاصل ومسألة مقبولة لديهم. من جهة أخرى ألم يعرف المجتمع الأوربي الحجاب واللبس الفضفاض، فلتنظر الى الراهبات وشكل لبسهن، قبل انتقادها للبس المرأة المسلمة!.

وتفتري الكاتبة على الرجال كذلك بقولها: **"قال أحد الرجال المسلمين المتنورين مرة: أن الامل الوحيد لنساءنا هو أن يعتنقن المسيحية"**[٥٠]

ISSN. 1815-8854

كيف يكون مستنيراً وهو يدعو للخروج عن ملة الإسلام والتنصر، وهو مؤكد يعلم بأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) هو خاتم الأنبياء والمرسلين. يقول الباري عز وجل (إن الدين عند الله الإسلام..)[٥١] ويقول رسولنا الكريم: (والذي نفس محمد بيده، لايسمع بي أحد من هذه الأمة ولايهودي ولانصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسلتُ به الا كان من أصحاب النار)[٥٢].

فكلام هذه الكاتبة هُراء، لم نقرأ أو نسمع أن مسلماً أو مسلمة غدت نصرانية كحل لمشكلاتها الحياتية! انه الحقد الأعمى من هؤلاء المستشرقين على الشعوب الإسلامية.

وتوغل في الافتراء وتقول: **"كم مرة قلت لهؤلاء النساء، احمدُ الله إني لستُ إمرأة مسلمة! وقد كان الجواب الذي ينبع من القلب دوماً، نعم يجب في الحقيقة أن تشكري الله، لكن ماذا نفعل إنه نصيبنا"**[٥٣].

أن تحمد الكاتبة الله كونها غير مسلمة هذه مسألة تخصها، أما أن المرأة المسلمة تحثها على شكر الله على ذلك، فهذا يجانب الحقيقة والمنطق، ولم يَرد هكذا نص أو رأي في كتب ومشاهدات الرحالة الأجانب المنصفين وغير المنصفين، ولايمكن أن يصدر هكذا رأي عن إمرأة مسلمة وإن كانت أُمية جاهلة، يقول الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم): (يولد الطفل على الفطرة فأبواه إما يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)[٥٤]. أي أن الطفل يولد على فطرة الإسلام وعبادة الله والإيمان به وذويه إما يعمقان ذلك الإيمان أو يحولانه إلى ديانة أخرى. بموجب دينهم.

من جهة أخرى فإن الأهداف التبشيرية التي قدم من أجلها القسس والرهبان وبخاصة (الآباء الدومنيكان) منذ القرن السابع عشر معروفة في الموصل، وهناك من غالا في سعيه لتعميق الغايات التبشرية لكسب أبناء المجتمع وبقية الطوائف ونشر الكثلكة عبر الفعاليات والأنشطة التعليمية والطبية والثقافية وغيرها[٥٥].

وأوردت الكاتبة بشأن المرأة الموصلية: **"لقد قيل سابقاً أن قلب المرأة المسلمة لايعرف الحب طوال حياتها، وتبدو تلك المقولة لسوء الحظ صحيحة في أغلب الأحيان، من صحيح القول ايضاً، أن النساء المسلمات بالرغم من ذلك مجموعة محبوبة جداً في البشر ويتمتعن بقلوب عامرة بالحب"**.[٥٦]

لماذا لايعرف قلب المرأة الحب طوال حياتها، وقد جعل الله المودة بين الزوج والزوجة والأم وأطفالها، والأخت وأشقائها وشقيقاتها، ثم لماذا هذا التناقض في القول بأن النساء المسلمات بالرغم من ذلك مجموعة محبوبة جداً في البشر ويتمتعن بقلوب عامرة بالحب! فكيف يكون القلب عامر بالحب إن لم يعرف معناه!.

يقول الباري عز وجل (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون)[٥٧]. فالحقيقة أن قلب المرأة المسلمة يفيض بالحب والحنان على أسرتها وأهلها. بعكس ما زعمت به المؤلفة.

وفي سلسلة الافتراءات على المرأة تقول كذلك: **"إنهن لايعرفن عن الله إلا انه اله متعنت عديم الإحساس [أستغفر الله وحاشا] يمسك بقدر المرء خلال حياته ولافائدة من التذمر من مشيئته لأن المكتوب مكتوب"**[٥٨]

ISSN. 1815-8854

هذا الكفر بعينه من كاتبة تبلد فكرها وتحجر قلبها وغُلف بالسواد، وهي حتماً لاتعلم أن الله (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)[٥٩] ولايمكن بأي حال من الأحوال إسباغ الذات الإلهية بصفات البشر والمؤمن يؤمن بالقضاء والقدر، وما كتب له خيراً كان ام شراً فذلك أحد شروط الإيمان.

تعبر الكاتبة عن جهلها التام بكل ما يتعلق بالإسلام بقولها: "**يقول محمد في القرآن، إن اكرمكم عند الله أتقاكم**"[٦٠] فان هذا كلام الله تعالى نُزل على محمد عبر الوحي، وليس تعبير من الرسول الكريم، وفي إدعائها هذا، إنما تشير إلى أن القرآن الكريم، هو كتاب وضعي وليس الهي، وهذا إما جهل أو إساءة متعمدة لقول الله تعالى وتشويه حقائق الإسلام، ونقلها بشكل خاطئ إلى الآخرين.

وتحاول الكاتبة النيل من الحياة العائلية وأركانها بقولها: "**لاتوجد في الموصل حياة بيتية بالمعنى الذي نفهمه، فكلمة بيت، هي الكلمة الوحيدة المستخدمة في اللغة العربية لوصف المنزل الذي هو ملجأ ومستقر الإنسان، من السخرية أن ندعوا البيت في الموصل بهذا الاسم المقدس في قلوب الانكليز، يقول أحد الكتاب المسلمين المعروفين في كتاب نُشر مؤخراً في القاهرة، أن الرجل هو السيد المطلق والمرأة أمة لديه إنها مقر متعته الحسية ومجرد لعبة يداعبها في الوقت والطريقة التي تسره، إنه يتمتع بالمعرفة في حين تتمتع هي بالجهالة، فالسماء والتفرد من نصيبه وظلمة الزنزانات نصيبها، إنه يأمر وعليها الطاعة العمياء إنه يمثل كل شيء له معنى في حين إنها جزء غير ذي أهمية من ذلك الشيء، ولما كان هذا هو رأي كل رجل مسلم، فهل نستغرب لانعدام السعادة والاحترام المتبادل في الحياة العائلية، ينظر الرجال الى النساء ويعاملوهن بصورة أفضل بقليل من البهائم. وعندما تتحول النساء بسبب ذلك الى ما يشبه البهائم يعود الرجال ليلعنوهن، إنهم يبقون كعوب أحذيتهم على رقاب النساء بصورة وطيدة ويتحدوهن على النهوض**"[٦١]

عند قراءة هكذا آراء لمستشرقين، نرثي لحالهم وسطحية ثقافتهم وهشاشة أفكارهم التي تنطوي على جهل وخبث شديد. فأقوالها عكس الحقائق تماماً، وما نقلته لنا ليس إلا إعترافاً صريحاً بماهية الأسرة الأوربية وما هي عليه عموماً، فالتفكك الأسري والخيانات المتبادلة واستقلال الأبناء والبنات عن أسرهم هي العلامات البارزة للأسرة الأوربية عموماً، في حين أن الأسرة الموصلية في كل زمان تتخذ من البيت مقراً وارثاً لاستقرارها وعنواناً لوجودها وديمومتها، والرجل فيه هو (السيد) نعم تلك حقيقة فالنظام (الأبوي) هو السائد في كل بلاد المشرق والبلدان الإسلامية، والله تعالى جعل للرجل مكانة وميزه عن المرأة بالأفعال والمسؤولية بقوله (الرجال قوّامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض..)[٦٢]. وللمرأة مكانتها في الإسلام ولدى الرجل وأوصى الله بها خيراً وكذلك رسوله الكريم فيقول النبي محمد (صلى الله عليه وسلم): (إستوصوا بالنساء خيراً)[٦٣] وايضاً (رفقاً بالقوارير)[٦٤] وغيرها من الأحاديث النبوية، وفي المجتمع الموصلي ظهرت نساء فاضلات قمن بأعمال جليلة منذ العهد الجليلي في بناء الجوامع والمساجد وأوقفوا اوقافاً لها مثل: وقفية محبوبة

ISSN. 1815-8854

خاتون ووقفية مريم خاتون ووقفية فردوس خاتون وعدد كبير آخر من وقفيات النساء في الموصل خلال الفترات التاريخية اللاحقة[٦٥].

وإذا كان المجتمع الموصلي قَدْ رانَ في دروب الجهل والفقر أواخر العهد العثماني، فهذا لم يلغ تطلعه نحو العلم والبناء وليس مدعاة لانعدام السعادة والاقدام بين أفراد الاسرة الواحدة.

كما إن دور المرأة في الريف وواجباتها تختلف عن نظيراتها في المدينة، فالأولى تنزل للعمل في الحقل وتشارك في أعمال الزراعة وتربية المواشي وعمل منتوجات الألبان[٦٦]. بينما الثانية في المدينة تنحصر واجباتها في تربية الأطفال وإدارة شؤون المنزل. ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن تعامل بالوصف الشنيع الذي ذكرته الكاتبة. لوجود المودة التي زرعها الله بين الزوج والزوجة.

وعن عملية إحصاء السكان وبخاصة النساء في الموصل تذكر: "**سعى الوالي منفذاً بذلك أوامر إسطنبول إلى تسجيل جميع نساء الموصل.. غير أن المسلمين والمسيحيين على قدم سواء ثاروا عند سماع فكرة كتابة قائمة بنسائهم**"[٦٧].

يعود هذا الأمر إلى زمن الوالي مصطفى يمني باشا (١٩٠٤-١٩٠٨) فقد حاول إجراء إحصاء سكاني للإناث في مدينة الموصل، فإعترض الأهالي وهاجت جموع الموصليين في إنتفاضة خلال المدة ١٠ و١٥ تشرين الثاني ١٩٠٦ وبرزت شخصية (محمد أبو جاسم) في القيادة ونسجت عنه قصص وبطولات في الدفاع عن المرأة الموصلية، وعند إلقاء القبض عليه من قبل السلطات العثمانية ظهرت شخصية إبن أخته (سرحان) الذي أنشد قائلاً:

هذا الخال واني ابن أخته عند الموت خالي عرفته[٦٨]

الأمر الذي أدى إلى إلغاء عملية الإحصاء أو التسجيل. وسبب الرفض كما هو معلوم بأن المجتمع الموصلي يتسم بالمحافظة في كل مكوناته الاجتماعية.

وكتبت عن حمام علي بقولها: "**أما زيارة أحد الينابيع الكبريتية الساخنة مرة في السنة. فتعتبر من أهم أساليب الترفيه التي يمارسها الموصليون .. وتدعى حمام علي والأصح حمام العليل**"[٦٩].

إعتاد أهالي الموصل وبخاصة النساء زيارة الينابيع الكبريتية مرات عدة في السنة. من أجل الترفيه عن النفس ولغرض العلاج من بعض الأمراض الجلدية والتهابات المفاصل، أما عن تسمية الحمام، فسميت (حمام علي) من قبل الأهالي، (وليس حمام العليل) كما تسمى في المخاطبات الرسمية، فقد ذكرت التسمية الأولى من قبل المسعودي وياقوت الحموي وكذلك دومنيكولانزا[٧٠] وغيرهم وحتى الشعراء والكتّاب يذكرونها بحمام علي، فهذا الشاعر سليمان بن مراد الجليلي (١٨٦٣-١٩٠٨م) يقول مثلاً:

بالله عليكم يا خلق سلموا على حمام علي[٧١].

كما أن الأديب الموصلي إسماعيل حقي آل فرج لديه كتاب مخطوط بعنوان (تاريخ حمام علي أو ثلاث ليال في حمام علي)[٧٢]. فهي على الأرجح منسوبة لشخص إسمه علي. ولاعلاقة للعليل بذلك.

ISSN. 1815-8854

٦- أعمال التبشير والتنصير:

وعن طبيعة العمل التبشيري ومحاولة إستغلال الناس البسطاء عن طريق التطبب تقول: **"أسسنا جمعية ضد حَلف الأيمان بين عدد من النساء وكان الأمر مضحكاً، وأنت ترى كيف يسعون لعدم إستخدام الألفاظ القديمة المتعارف عليها. والتي كانت على شفاههن منذ أيام الطفولة، أنتمى أحد الأطفال الصغار الى جمعية النساء هذه وكان التقيد بشروطها أصعب ما يكون عليه، غير أنه إستمر في سعيه الى حين تركنا الموصل. وكان قد تعلم الوصايا العشر وحفظها عن ظهر قلب لذا كنت أجعله يردد الوصية الثالثة [يبدو أنها لم تحفظ حتى الوصايا العشرة وتسلسلها فهي تقصد هنا الوصية الثانية وليس الثالثة كما سنرى] كلما سمعته يستخدم أحد الأيمَان في كلامه".**[٧٣]

وهذا إعتراف صريح بأنهم سخروا جهدهم الطبي لأغراض تتجاوز العمل التبشيري بين الطوائف المسيحية الى المسلمين ومحاولة التأثير على معتقداتهم وبخاصة للاطفال.

ومن المعروف بأن النشاطات الطبية والتعليمية قد ظهرت في الموصل منذ منتصف القرن الثامن عشر لكسب رضا الرأي العام وبخاصة الطوائف المسيحية وتحويلهم نحو الكثلكة، وتلاهم المبشرون الأمريكان ثم الانكليز في تقديم خدماتهم الطبية من خلال المستوصف الطبي، والاعتماد على تلقين المريض قبل معالجته حقائق عن التعاليم المسيحية[٧٤].

أما الإشارة إلى تأسيس جمعية لمنع الحلف بالله، فهي محاولة بائسة لابعاد النساء البسيطات والأُميات عن ذكر الله ولم يفلحوا، يقول الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) (من كان منكم حالفاً فليحلف بالله)[٧٥] وإن جهودهم في نشر الوصايا العشرة بين الجهلة والأُميين لم تأتِ أكلها لفشل التبشير بين الأهالي، والوصايا هي ١-ان الرب هو إلهك، لايكن لك آلهة أخرى تجاهي. ٢-لاتحلف بإسم الرب الهك باطلاً. ٣-أُذكر يوم السبت لتقدسه. ٤-إكرم أباك وأُمك. ٥-لاتقتل. ٦-لاتزن. ٧-لاتسرق. ٨-لاتشهد على قريبك بشهادة زور. ٩-لاتشته إمرأة قريبك. ١٠-لاتشته مقتنى قريبك[٧٦]، وهذه الوصايا ترجع للمسيحيين واليهود.

كما وردت الوصايا العشرة في الاسلام كذلك، أنظر سورة الإسراء (وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً(٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنْ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً(٢٤) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً(٢٥) وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً(٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً(٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً(٢٨) وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً(٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً(٣٠) وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً(٣١) وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً ومقتاً وَسَاءَ سَبِيلاً(٣٢) وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ

ISSN. 1815-8854

سُلْطَاناً فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُوراً(٣٣) وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً(٣٤) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً(٣٥) وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً(٣٦) وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً(٣٧) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً(٣٨) ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنْ الْحِكْمَةِ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً(٣٩))[٧٧].

ثم تعود لتقر بأهدافهم التبشيرية التنصيرية " **ألن يتضرع قرائي لكي تدعم البعثة الى الموصل وتجهز بصورة صحيحة لكي نقوم بنشر الإنجيل بين هؤلاء اليزيدية المساكين، وكذلك لنبشر به بين جيرانهم من المسلمين ليعلموا كيف يحبون ذلك القادر وحده فقط على طرد الشياطين**"[٧٨].

هذا النصّ يبين مدى الاستخفاف بحقيقة أهل الموصل وتغييب تاريخهم وحضارتهم وكأنهم شعب همجي لايعرف القراءة والكتابة وليأتي هؤلاء ليعملوا على تنصيرهم من خلال نشر الإنجيل، في الوقت كانت الموصل تزدحم فيها دور العلم والمساجد والجوامع والمدارس الدينية وتزهو بالعلم والعلماء وكان يُشد إلى علمائها الرحال[٧٩]، انه التعصب الأعمى والغشاوة السوداء على أعينهم.

وعن أساليب التأثير على المرضى في عملية التنصير تقول "**يسمع كل مريض قبل إجراء العملية له وهو يتلو دعاء يسأل فيه الله أن يبارك العملية ويكللها بالنجاح. ويتلقى المريض يوماً بعد يوم واسبوعاً بعد آخر تعليمات ويحصل على فكرة جديدة عن ماهية المسيحية وعندما يترك مستشفى البعثة الانكليزية، ويعود إلى داره أكانت في المدينة أو في قرية جبلية بعيدة ستكون أي معارضة مريرة كان يحملها للمسيحية قد زالت**"[٨٠]

هكذا كان يتم التعاطي مع المرضى ومعالجة حالاتهم الصحية، من قِبل البعثة الكنسية والأطباء بأن يتلوا المسلم بعض التراتيل والتعاليم والأدعية المسيحية قبل طبيبه او إجراء عملية له، وهو المضطر بإتباع ما يطلب منه، بغية الحصول على الشفاء والدواء، ويندرج ذلك في إطار التنصير ونشر الديانة المسيحية بين المسلمين وغيرهم من الطوائف الأخرى في المجتمع الموصلي، وتلك شهادة منهم باستغلال الحالات الإنسانية الحرجة للمرضى للحصول على مآربهم الدينية، باستغلال الطب والدواء.[٨١]

٧- سجايا أهل الموصل:

ومع كل تلك المغالطات والافتراءات تذكر الكاتبة بعضاً من السجايا الحميدة لأهل الموصل بقولها: "**من العادات الطريفة الأخرى في الموصل عادة إرسال صواني تحوي غذاءاً مطبوخاً في أواني للقادمين الجدد أو العائدين الى دورهم بعد غياب طويل. لم نكن نعرف بهذه العادة عند وصولنا الموصل للمرة الاولى، لذا كانت دهشتنا كبيرة عندما رأينا في ثاني أيام وصولنا رجلين أو ثلاثة رجال يدخلون مجمع سكننا وقت المغرب حاملين على رؤوسهم صواني هائلة الحجم، بينو لنا أن سيدهم، وهو تاجر مسلم أرسل هذا العشاء مع تحياته الوافرة**

ISSN. 1815-8854

وتمنياته الطيبة، كان ذلك العشاء يكفي عشرين شخصاً.. لا أنكر إني زرت أحد المسلمين ومهما كانوا فقراء دون أن يقدموا لي إما القهوة أو بعض الحلويات"[٨٢].

يقول المثل (المرء مخبوء تحت لسانه) إن هذه الحقائق التي أوردتها عن سجايا أهل الموصل في الكرم والوفادة، دون قصد منها لتفند كل ما إفترت به عن المجتمع الموصلي من تعميم وتضخيم لبعض السلبيات إن وجدت. فهي هنا تقر بأن أهل الموصل كرماء ودودين لايميزون ولايفرقون بين الطوائف والأديان ويرحبون بالضيف وإن كان أجنبياً! ويقدمون أفضل ما لديهم من الأكلات الموصلية المعروفة وفي كل المناسبات[٨٣].

وتعود لتذكر سجايا ومناقب أخرى لأهل الموصل بقولها: **"يتمتع سكان الموصل عامة بقلوب طيبة، ومن السهل تسليتهم، أما اكتساب ثقتهم فلا يوازيه سهولة سوى إستثارة عواطفهم، وهم بصورة عامة أيضاً ذوو مزاج طيب ويتمتعون بالصبر، كما إنهم قلما ينساقون وراء عواطفهم .. رغم إفتقار التحكم في نشأتهم وهم صغار"**[٨٤].

نلاحظ التخبط والازدواجية في وصف طبيعة المجتمع الموصلي، فهي حاولت تشويه دور ومكانة المرأة الموصلية ونعتت الأهالي بشتى الأوصاف، ثم تعود فجأة لذكر بعض مناقبهم وشيمهم ومزاجهم وصبرهم، وهذه صفات لمجتمع واعٍ متزن متدين يعرف حدود الله ولذلك يعيش الناس فيه في مزاج رائق ونفسية صافية، غير أنها تعود لتنتقد نشأة الأطفال ولم تلتفت الى إهتمام الأهالي بحسن تربيتهم وإرسالهم إلى (الكتاتيب) و (الملا والملاية) كما ذكرنا سابقاً من أجل تعزيز السجايا الفاضلة وتنشأتهم نشأة سليمة مبنية على أساس ومعرفة الحلال والحرام[٨٥].

وفي مكان آخر تنتقل الكاتبة لوصف المجتمع الموصلي بالكاذب وفقدان الثقة حتى بين الأخوة في الأسرة الواحدة بقولها: **"يتعبك سماع الأكاذيب دوماً بحيث تبدأ تشعر أن من غير المجدي سؤال الناس عن أمورهم. لا أرغب أن يفهم من كلامي أن الحقيقة مفقودة كلياً في الموصل، إلا أنها نادرة على وجه التأكيد وعندما تجدها ستكون فضيلة ثمينة. من المحزن أيضاً أن المواطنين لايثقون ببعضهم البعض أو يصدقونهم فمن المعلوم، أن الأخ يغش أخاه وأن الأبن سيخدع أبيه، والكل يشكون بجيرانهم، غير أن الناس بصورة عامة أُمناء فيما عدا السرقات البسيطة التي تتوقع دوماً بين الخدم"**[٨٦].

ان المجتمع الموصلي في غالبيته يدين بالديانة الاسلامية، والاسلام يحض على مكارم الأخلاق والصدق والأمانة وعدم الغش، يقول الرسول (صلى الله عليه وسلم) (مَنْ غَشَنا ليسَ مِنَّا)[٨٧] وعن إحترام الجار يقول (مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه)[٨٨]، فهل يُعقل أن يكون المجتمع الموصلي فاقداً للثقة والأمانة ومرتعاً للغش. وكيف تحمّل أهالي الموصل هذه الصفات ثم يكون (الناس بصورة عامة أمناء)! –على حد تعبيرها–. فالتنشئة الأسرية تقوم على الصدق والأمانة والضبط والإلتزام بالمعايير الأخلاقية والدينية[٨٩].

ISSN. 1815-8854

الخاتمة:

تبيّن لنا من بعض الآراء التي أوردتها المستشرقة غريفيث مدى الضلال الذي كانت عليه في تناولها لطبيعة المجتمع الموصلي وبخاصة للحياة الاجتماعية فيه أو كيف أنها تغافلت عن عمد ذكر العديد من مزاياه وانه ذو تاريخ عريق وحضارة سامقة، وركزت على السلبيات وسعت إلى الطعن بالمفاهيم الإسلامية والتقليل من الأعراف السائدة في المجتمع والتركيز على الأُمية السائدة بين النساء بشكل خاص، وكان الحقد والطعن والتشويه هو السائد في تلك الكتابات في محاولة لنقل صورة مجتزئة ومشوهة عن المجتمع الموصلي، وكيف أنه مغلوبٌ على أمره حتى في دينه! وهذا ما يجانب الحقيقة.

يرى الباحث من الأهمية عدم الأخذ بكتابات المستشرقين من المسلمات دون تدقيق وتمحيص و التصدي بكل حزم بالنقد والتحليل وكشف الحقائق لتلك الكتابات المسمومة من قبل المستشرقين الذين يسعون للنيل من تاريخنا العربي الإسلامي الوضّاء، واللحمة الوطنية وترابط النسيج الاجتماعي بين أقلياته وقومياته، فقد إعتادوا على دس السم في العسل، وتغليف طروحاتهم بالأكاذيب والكلام المنمق للنفاذ إلى أغراضهم في التبشير أو التنصير أحياناً أخرى.

هوامش البحث:

* يقصد بالمورفولوجيا التركيب الداخلي للمدينة.

(١) م. أي. غريفيث، الموصل في مستهل القرن العشرين، ترجمة صباح صديق الدملوجي (لا.م.د.ت).ص ٩.

(٢) سعيد الديوه جي، الموصل أُم الربيعين (بغداد،١٩٦٥) ص٥.

(٣) سعيد الديوه جي، تاريخ الموصل، ج١، (بغداد، ١٩٨٢)، ص ص ٢٢-٢٤.

(٤) غريفيث، المصدر السابق، ص ١٠.

(٥) عمادالدين زنكي: وهو قائد عسكري شجاع تركي الاصل حكم اجزاء من بلاد الشام واشتهر بمحاربته للصليبيين، للتفاصيل انظر: عمادالدين خليل (الدكتور)، عماد الدين زنكي (الموصل، ١٩٨٥) ص ٣٠ وما بعدها.

(٦) الجليليون: نسبة الى الاسرة الجليلية التي حكمت الموصل خلال المدة ١٧٢٦-١٨٣٤م وسميت فترة حكمهم بالحكم المحلي، واشتهرت بصد هجوم نادرشاه على الموصل سنة ١٧٣٤، عماد عبدالسلام رؤوف، الموصل في العهد العثماني، فترة الحكم المحلي ١٧٢٦-١٨٣٤، (النجف، ١٩٧٥)، ص ٩٦.

(٧) الديوه جي، الموصل أُم الربيعين، ص١٤.

(٨) غريفيث، المصدر السابق، ص ١٩.

(٩) سارة شيلدز، الموصل قبل الحكم الوطني في العراق، ترجمة باحثة الجومرد (الموصل، ٢٠٠٨) ص٢٤٩.

(١٠)غريفيث، المصدر السابق، ص ٥.

(١١)الديوه جي، الموصل أُم الربيعين، ص٦.

(١٢)غريفيث، المصدر السابق، ص ٤.

(١٣)الكتاب المقدس، (بيروت، ١٩٩٦)، سفر يشوع بن نون، ص٢٦٢.

(١٤)ذنون الطائي، سفر يشوع بن نون، دراسة تحليلية مقارنة للممارسات الصهيونية في فلسطين (أعمال مؤتمر القدس الرابع في جامعة تكريت ٢٠٠٢)، ص١٥.

ISSN. 1815-8854

(١٥)ميخائيل حجو بزي، بلدة تلكيف ماضيها وحاضرها (الموصل، ١٩٧٠)، ص١١٣.

(١٦)غريفيث، المصدر السابق، ص ١٠.

(١٧)ياسين بن خير الله الخطيب العمري، غرائب الأثر في حوادث ربع القرن الثالث عشر، حققه ونشره محمد صديق الجليلي، (الموصل، ١٩٤٠)، ص٣٩.

(١٨)غريفيث، المصدر السابق، ص ص ٢٥-٢٦.

(١٩)القرآن الكريم، سورة النجم، اية ٣ و ٤.

(٢٠)القرآن الكريم، سورة البقرة اية ١١٥.

(٢١)القرآن الكريم، سورة البقرة اية ١٤٤.

(٢٢)غريفيث، المصدر السابق، ص ٢٦.

(٢٣)دبليو وكَرام، أي وأوكار. تي. أي، مهد البشرية الحياة في شرق كردستان، ترجمة جرجيس فتح الله المحامي، (بغداد، ١٩٧١)، ص٨٣.

(٢٤)انظر علي شيت محمود الحياني، اليهود في الموصل ١٩٢١-١٩٥١، دراسة عامة، اطروحة دكتوراه، قسم التاريخ، كلية الآداب، ٢٠١٢، ص ص ٢٤-٧٢.

(٢٥)عبدالرزاق الحسني، اليزيديون في حاضرهم وماضيهم (صيدا، ١٩٥٣)، ص ص ٢٩-٣٠؛ عادل البكري، رحلتي مع الأيام حقائق وذكريات(الموصل، ٢٠١٨)، ص١٠٣.

(٢٦)غريفيث، المصدر السابق، ص ٤٣.

(٢٧)عبدالجبار محمد جرجيس، مراسيم الولادة في الموصل، موسوعة الموصل التراثية، ج١، جمع واعداد أزهر العبيدي، الناشر (مركز دراسات الموصل، ٢٠٠٨)، ص ص٥٨٤-٥٨٥.

(٢٨)غريفيث، المصدر السابق، ص ٤٣.

(٢٩)عبدالجبار محمد جرجيس،أضواء على دور الحياة الشعبية في الموصل، (الموصل، ٢٠١١)، ص٢٤.

(٣٠)غريفيث، المصدر السابق، ص ٢١.

(٣١)كارستن نيبور، رحلة نيبور الى العراق في القرن الثامن عشر، ترجمة محمود الامين، (بغداد، ١٩٦٥)، ص١١٥.

(٣٢)غريفيث، المصدر السابق، ص ٤٤.

(٣٣)احمد الصوفي، خطط الموصل، ج٢، (الموصل، ١٩٥٣)، ص١٩.

(٣٤)القرآن الكريم، سورة الاسراء، آية ٢٣.

(٣٥)غريفيث، المصدر السابق، ص ٥١.

(٣٦)عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، تخريجه في مسند احمد / مسند عبدالله بن عمرو بن العاص، ج١١/ ص٣٦٩/ حديث رقم ٦٧٥٦.

(٣٧)عبدالله النعمة، ديوان الخطب المنبرية، نشره محمد محمود الصواف، (لا م، ١٩٧٣)، ص١٣٩.

(٣٨)سعيد الديوه جي، تقاليد الزواج في الموصل (الموصل، ١٩٧٥)، ص٨.

(٣٩)غريفيث، المصدر السابق، ص ٥.

(٤٠)المصدر نفسه، ص٤٠.

(٤١)القرآن الكريم، سورة الشورى، آية ٤٩.

ISSN. 1815-8854

(٤٢)محمد رؤوف الغلامي، المردد من الأمثال الموصلية، (بغداد، ١٩٦٤) ص٤٣.

(٤٣)اسحق عيسكو، من اشعار الترقيص الموصلية، في موسوعة الموصل التراثية.. ج٢، ص٢٧.

(٤٤)غريفيث، المصدر السابق، ص ٥٠.

(٤٥)الديوه جي، تقاليد الزواج..، ص ص ٨-٩.

(٤٦)غريفيث، المصدر السابق، ص ٦٤.

(٤٧)الديوه جي، تقاليد الزواج..، ص ص ١٠-١١.

(٤٨)غريفيث، المصدر السابق، ص ٥٢.

(٤٩)القرآن الكريم، سورة النور، الاية ٣١.

(٥٠)غريفيث، المصدر السابق، ص ٥٢.

(٥١)القرآن الكريم، سورة آل عمران، الاية ١٩.

(٥٢)صحيح مسلم/ كتاب الإيمان/ باب وجوب الإيمان في رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم الى جميع الناس: ج١/ تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي ص١٣٤/ حديث رقم ١٥٣/ ، الناشر: دار إحياء التراث/ بيروت.

(٥٣) غريفيث، المصدر السابق، ص ٥٣.

(٥٤)عن أبي هريرة في صحيح البخاري/ كتاب الجنائز/ باب اذا اسلم الصبي فمات هل يُصلى عليه وهل يُعرض على الصبي الاسلام/ ج٢/ ص٩٤/ حديث رقم ١٣٥٨، عن دار طوق النجاة للطباعة/ ط١/ سنة ١٤٢٢هـ.

(٥٥)انظر، ذنون الطائي، الاتجاهات الاصلاحية في الموصل في آواخر العهد العثماني حتى تأسيس الحكم الوطني (الموصل، ٢٠٠٩)، ص١٧٣.

(٥٦)غريفيث، المصدر السابق، ص ٥٨.

(٥٧)القرآن الكريم، سورة الروم، الاية ٢١.

(٥٨)غريفيث، المصدر السابق، ص ٥٨.

(٥٩)القرآن الكريم، سورة الشورى، الاية ١١.

(٦٠)القرآن الكريم، سورة الحجرات، الاية ١٣.

(٦١)غريفيث، المصدر السابق، ص ٦٠.

(٦٢)القرآن الكريم، سورة النساء، الاية ٣٤.

(٦٣)صحيح البخاري/ باب خلق آدم ج٤/ حديث رقم ٣٣٣١/ ص١٣٣.

(٦٤)صحيح البخاري/ كتاب الأدب/ ج٨/ حديث رقم ٦١٤٩/ ص٣٥.

(٦٥)منهل اسماعيل العلي بك، موسوعة الحجج الوقفية في الموصل وأوجه صرفها (١٣٦٥-٢٠١٤)، (الموصل، ٢٠١٨) ص٢٠٠ وما بعدها.

(٦٦)بلاوي فتحي حمودي الحمدوني، صفحات من تاريخ ريف الموصل، (الموصل، ٢٠١٢) ص١١٤.

(٦٧)غريفيث، المصدر السابق، ص ١٢١.

(٦٨)ممتاز محمد محسن عمر أغا، تاريخ الموصل في زمن الحكم العثماني ١٥١٦-١٩١٨(الموصل، ١٩١٣) ص ص ٢٠٨-٢٠٩.

(٦٩)غريفيث، المصدر السابق، ص ٢٨.

ISSN. 1815-8854

(٧٠)دومنيكو لانزا، الموصل في الجيل الثامن عشر، ترجمة روفائيل بيداويد، (الموصل، ١٩٥٣)، ص٣١.

(٧١)الديوه جي، تقاليد الزواج في الموصل، ص٢٢.

(٧٢)الكتاب مخطوط، محفوظ لدى عائلة حفيده قصي حسين آل فرج.

(٧٣)غريفيث، المصدر السابق، ص ٦٨.

(٧٤)الطائي، الاتجاهات الاصلاحية في الموصل...، ص١٨٢.

(٧٥)صحيح مسلم/كتاب الأعيان/ باب النهي عن الحلف بغير الله/ ج٣/ حديث رقم ١٦٤٦/ ص١٢٦٧.

(٧٦)الكتاب المقدس، ص ص ٢٢٠-٢٢١.

(٧٧)القرآن الكريم، سورة الاسراء، الايات ٢٣-٣٩.

(٧٨)غريفيث، المصدر السابق، ص ١١٤.

(٧٩)سعيد الديوه جي، دور العلم في الموصل، (بيروت، ٢٠١٣)، ص١١٧ وما بعدها.

(٨٠)غريفيث، المصدر السابق، ص ١٣٨.

(٨١)عن أساليب التبشير، انظر، سلامة حسين كاظم، التبشير في العراق، وسائله وأهدافه، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٨٥، ص٦٨، وما بعدها.

(٨٢)غريفيث، المصدر السابق، ص ٨١.

(٨٣)عماد عبد السلام رؤوف، مظاهر الحياة الاجتماعية، موسوعة الموصل الحضارية، المجلد ٤، (الموصل، ١٩٩٢)، ص٢٨٨.

(٨٤)غريفيث، المصدر السابق، ص ٦٣.

(٨٥)الصوفي، المصدر السابق، ص١٩.

(٨٦)غريفيث، المصدر السابق، ص ٦٦.

(٨٧)ابن حِبَّان/كتاب البيوع ذكر الزجر عن غش المسلمين بعضهم بعضاً في البيع والشراء/ ج١١/ حديث رقم ٤٩٠٥. كتاب ابن حبان/ طبع مؤسسة الرسالة/ ط٢/ بيروت ١٤١٤هـ/١٩٩٣م ، ص٢٧٠.

(٨٨)عن عائشة في صحيح البخاري/كتاب الاداب/ باب الوِصَاة (من الوصية) ج٨/ حديث رقم ٣٠١٤، ص١٠.

(٨٩)غريفيث، المصدر السابق، ص ٦٦.